

السرد المتضمن و وظائفه في القصة القصيرة

أ.م.د. ثائر عبد المجيد العذاري جامعة واسط / كلية التربية / قسم اللغة العربية
طالب الماجستير كريم عبدعلي ناجي/ جامعة واسط / كلية التربية / قسم اللغة العربية

أولاً: المستويات السردية: تغلب البنية الخطية^(١) على القصة القصيرة، لأنها في الغالب، تسرد بواسطة سارد واحد، يحكي قصته، أو قصة الشخصية المحورية. وهذا يعني انها مبنية من مستوى سردي واحد. وقد ظهرت في سرديات ما بعد الحداثة، تقنيات تجريبية، ادت الى تعدد المستويات السردية، بسبب تعدد الرواة، وتعدد الحكايات وتداخلها.

١- السرد القالب Matrix narrative : ويسمى ايضا، السرد الانموذج، والسرد الاطار، وهو السرد الذي يشتمل على سرد ضمنى. والمصطلح مشتق من الكلمة اللاتينية (mater) التي تعني (الام، الرحم) وتشير الى الشيء الذي ينشأ في داخله شيء آخر. ^(٢) . وسوف نختار مصطلح (السرد القالب) في هذا البحث، لكي لا ينصرف الذهن الى المضامين العامة التي تحملها كلمة (انموذج) كالمثالية والجودة. وما تحمله كلمة (اطار) من مضامين قد يفهم منها المحيط الخارجي للشيء وليس صلبه او جوهره.

٢- السرد المتضمن (Metanarrative) : وهو مستوى ثانٍ من السرد، ينشأ داخل السرد القالب، في القصص التي يتعدد رواتها أو تتعدد حكاياتها. ويدعى أيضا السرد التحتي (Hyponarrative) لأن ميك بال، وريمون كينان أثبتا أن البادئة (Hypo) والتي تعني باللاتينية (تحت، أسفل) أفضل من البادئة (Meta) التي تعني باللاتينية (بين، مع) وهي تصلح تقنيا للإشارة الى سرد مرووس أو أقل درجة. ^(٣) ويدعى أيضا السرد المظمور، والسرد المضمّر. ويبدو لي أنهما تسميتان غير مناسبتين، على الأقل في اللغة العربية؛ لأن الإضممار يعني عدم ظهوره في النص، ولا تختلف عنها كلمة (مظمور) كثيراً، ولكنها قد تصلح لبعض الحالات الخاصة التي يحصل فيها تداخل شديد فيصعب التفريق بين المستويات السردية

ثانياً: وظائفه:

١- التكامل الحداثي actional integration : يوظف السرد المتضمن بوصفه عنصراً مهماً في السرد القالب.

٢- العرض exposition : يعطي معلومات تقع خارج خط الحدث الرئيس، ولا سيما التي تحدث في الماضي.

٣- التشيت distraction : يصرف الانتباه عن الحدث المهم، ويقوم بتسريبه على نحو غير مباشر، بينما يتظاهر بالانشغال في سرد حدث آخر.

٤- الإعاقة (التأخير) obstruction (retardation) : يقوم بتعليق مجرى السرد القالب.

٥- القياس التمثيلي analogy : يعد نظيراً قياسياً لإثبات فكرة الخط الرئيس في السرد القالب، أو نقضها. (٤)

ثالثاً: نماذج من القصة العالمية:

١- ليلة الهِبات قصة: خورخي لوي بورخس ترجمة: حسونة المصباحي

في قصة (ليلة الهِبات)^(٥) يفتح السارد - الراوي الأول - القصة ، بوصف المكان (قاعة الشاي القديمة) ثم ينتقل الى الجالسين ليمثل أفعالهم وينقل ما يدور بينهم من كلام على طرائق المعرفة والتذكر. ويمثل هذا الافتتاح؛ السرد القالب.

ثم يظهر من بين الجالسين رجل عجوز - الراوي الثاني - ليروي لهم حكاية ليلة قديمة، تصلح مثلاً عملياً لما طرحوه من أفكار. فقد ذهب مع شاب أكبر منه سناً، عندما كان في الثالثة عشرة من عمره، الى قرية أخرى في أول مغامرة له، وهناك يرى فتاة تدعى (الأسيرة) يعجب بها ويراهم مختلفة، في أول تجربة إنجذاب وتأثر يشعر بها نحو امرأة. وهذا سرد مُتضمّن في السرد القالب.

أمّا الراوي الثالث فهي الأسيرة، تحكي له ولصديقه قصة هجوم الهنود الحمر، برتابة كأنها تحكي نفسها، أو تتشد صلاة من الذاكرة، وعندما تقترب من نهاية حكايتها بمشهد اقتراب الهنود الحمر، يتعرض المكان الذي يجلسون فيه الى هجوم تشنه عصابة. وهذا مستوى سردي ثالث، متضمّن.

ثم يعود الراوي الثاني ليكمل حكايته، فعندما يهرب يرى شرطياً يُدخل الحرية في جسد زعيم العصابة، فيتجمع الناس، ويبدأ يروي - وبدهشة - للواقفين ما رأى ويبقى يرويها لسنين طويلة. "ومرت السنون وكثيراً ما رويت هذه الحكاية التي لا أعرف جيداً إن كانت هي التي أتذكرها أو أنني أتذكر الكلمات التي أرويها بها. وربما أنا شبيه بالأسيرة التي روت لنا حكاية الهنود الحمر".^(٦)

لقد تعلم في لحظة واحدة تجربتين، وعرف شيئين مهمين؛ الحب والموت.

القصة تألفت من ثلاث حكايات متداخلة، قدمها ثلاثة رواة، في ثلاثة مستويات سردية.

٢- الهور قصة: جوزيف كونراد ترجمة: ايمان احمد

يفتح السارد - المتخفي - قصة (الهور)^(٧) بمستواها السردى الأول (السرد القالب)، موظفا ضمير الشخص الثالث، ليقوم بمتابعة الرجل الأبيض (توان) وهو يسير في قاربه. يروي من زاوية نظره ما يراه من مشاهد الطبيعة، بجمالها وجلالها وسكونها ولا مبالاتها المتعالية، تتوالى المشاهد واللوحات المكتنزة بالسحر بلغة هادئة شعرية لا تخلو من تأثير ذلك السكون والتعالي للطبيعة. ويفصل بين لوحة وأخرى إلتفات السارد لينقل حركة القارب وإنعطافه أو تغيير الاتجاه.

تبدو المشاهد وكأنها تجمع بين الوقفات الوصفية وبين السرد من زاوية نظر الشخصية، لان تلك المشاهد لا تبدو وكأنها مجرد معلومات معطاة، وانما هي اقرب الى انعكاس الطبيعة كما تراها الشخصية المحورية. "في ذلك الجو الساكن بدت كل شجرة، كل ورقة، كل غصن، كل خيط ملتف من خيوط النباتات المتسلقة وكل تويج زهرة صغيرة، بدت كلها مسحورة بسكون مطلق لانهائي. لم يتحرك فوق النهر سوى المجاذيف الثمانية التي كانت تومض وتهبط مع بعضها بضربة واحدة... تأمل الرجل الابيض في الامتداد الواسع الخالي لمصب النهر، بينما كان مديراً ظهره للشمس الغاربة".^(٨)

تسير القصة على هذا الايقاع والتكرار حتى وصولهم الى كوخ الرجل الملاوي (ارسات) وهو صديق قديم للرجل الابيض، عاشا معا في زمن الحرب في بلد آخر، ويبدو أنه قد زاره مرات متعددة سابقا، وأنه معجب بشجاعته وقوته وإخلاصه، على الرغم من حياته الغريبة، في مكان منعزل وبعيد عن الحياة الاجتماعية، مع امرأة غريبة الاطوار..

وهنا يبدأ السرد المتضمن، حكاية ثانية يرويها ارسات لصديقه توان بصوته، فتصبح مطمورة او متضمنة في السرد القالب. يحكي ارسات قصة حبه لهذه المرأة وكيف انتزعها من رجال الحاكم بمساعدة أخيه، وهرب الى مكان بعيد بحثا عن الحب والسلام. لكن خسارته كانت كبيرة منذ البداية، فقد خسر أخاه الذي ضحى بنفسه ليعيق رجال الحاكم، ويفسح المجال لأخيه ليهرب. "لقد سمعت صرخته يا توان. سمعته ينادي باسمي مرتين وسمعت أصواتاً تصرخ اقتله! اضربه! ولم التفت قط سمعته ينادي باسمي ثانية مع صرخة مربعة كأن روحه كانت تخرج مع الصوت ولم ادر رأسي قط"^(٩)

يعبر عن ألمه عندما يسمع صوت أخيه ينادي، ويرى الرجال يحيطون به ويقتلونه. اما خسارته الاخرى فتحصل في هذا الوقت، حين تموت المرأة بعد وصول الرجل الابيض بسبب المرض. تختلف لغة ارسات في السرد المتضمن، عن لغة السرد القالب، وتتصف بالانفعال وبتوالي الجمل القصيرة المتلاحقة كتلاحق انفاسه القلقة. يحصل تداخل بين المستويين السرديين، فالسارد لا يكتفي بالاستماع الى الراوي الثانوي، وانما يقاطع السرد المتضمن ليقدم عبارات قصيرة من السرد القالب فيصف جلستهم كلما توقف ارسات ليلتقط انفاسه. مع وقفات وصفية، تعيق تدفق السرد، وتمثل لوحات اخرى للطبيعة والليل ينقلها بمهارة لغوية كتلك التي بدأ بها القصة.

إن الموضوعات الكبرى التي تلوح خلف تلك اللوحات وحكاية الرجلين والقصة باكملها تمثل ثنائيات مثل الحرب والسلام، الحياة والموت، الحب والكراهية. السرد المتضمن فيه احداث ومواقف وامتداد زمني الى الماضي أكثر من السرد القالب الذي انصب على وصف الطبيعة وتأملات الرجل الابيض.

يؤدي السرد المتضمن وظائف عدة في هذه القصة، منها:

أ- التكامل الحداثي: السرد المتضمن يفسر سبب ذلك الهدوء، والتأمل، والاستغراق في مشاهد الطبيعة، والاحساس بالرهبة امام جلالها الباذخ. انها حالة الانسان الذي يشعر برغبة في مراجعة مواقف من حياته. الانسان الذي فقد جزءاً عزيزاً من حياته، وسلامه الداخلي، واصدقائه، وفقد أشياء ثمينة أخرى في دوامة حرب قاسية طويلة.

ب- العرض: السرد المتضمن قدم معلومات خلفية عن شخصيات القصة، في الماضي.

ج- القياس التمثيلي: ليس الرجل الأبيض فقط خسر أشياء مهمة، فهذا ارسات قد خسر كل شيء. وربما يكون ثمة قياس آخر مختلف، فالرجل الأبيض لا يخفي إعجابه بصديقه الذي انتزع ما يريد، وربما كان يتمنى لو أنه فعل مثله.

رابعا: نماذج من القصة العراقية:

١- سرداب الخفاش قصة: فرج ياسين

تروى القصة من زاوية نظر الطفل (علي) - السارد - مما يضفي عليها ملامح الطفولة والبراءة والسحر والخيال. ويبدو انه يمر بمرحلة حساسة من عمره، ويقف على عتبة مرحلة جديدة، يحكي ماجرى في ليلة جاء فيها اصدقاؤه والخالة وابنتها البلهاء، واجتمعوا ليساعدوا امه في نقش القطن. وكانت الأجواء تساعد خيال الطفل على رسم الحكاية كما تبدو له؛ الليل، وضوء الفانوس الواهن، ووجوه اصدقاؤه الصغار، وامه، والخالة وحكايتها الشعبية، وابنتها البلهاء، وكومة القطن بينهم، وخياله

الذي يحذف ويضيف ويستذكر، ليتمثل كل ما في القصة من افعال وافكار ومشاعر كما يتخيل علي، وكما يرى ويسمع، متاخلا مع حكاية الخالة.

تتألف القصة من مستويين سرديين رئيسيين:

المستوى الأول: السرد القالب، ويقدمه السارد، ويهتم فيه بخطتين متداخلين، ينحصر احدهما بمتابعة كل ما يحدث في جلستهم الليلية، ونقل ما يرى ويسمع من أفعال وأقوال. بينما يتمثل الخط الثاني باسترجاع ما جرى في نهار ذلك اليوم، واهم ما فيه قيامه بجلب جرو صغير واخفائه في سرداب الخفاش، بمعونة اصحابه.

المستوى الثاني: السرد المتضمن، وتقدمه احدى شخصيات القصة، الخالة التي تحكي لهم حكاية شعبية، حكاية الامير مردان والملكة الشابة نور العيون.

تتداخل هذه الحكاية مع سرده، و تشد إنتباهه عندما تتناغم مع إحساسه "وخيل اليّ انني استمع لأول مرة الى صوت الخالة نوفة مع اننا كنا نتكلم حول صوتها كالفراخ"^(١٠) حصل ذلك الاهتمام عندما ذكرت مغامرة الامير حين همّ بالتسلل الى قصر الملكة الشابة.

وتثير الحكاية خياله وتذكره بمغامراته الصبانية، فعندما تذكر الحكاية وقوع الأمير في "سرداب واسع مملوء بالافاعي"^(١١) يعقبها قوله "ورأيتني ادخل الزقاق البارد المظلم محاولاً مشاهدة الكلب الصغير"^(١٢) وعندما تلحظ الأم شروده تقول "لماذا لا تنفش القطن مثل الاولاد الآخرين؟"^(١٣)، في تلك اللحظة تكون الخالة قد بلغت قولها "لأن الامير مردان اراد ان ينام مع الملكة الشابة نور العيون..."^(١٤) فيشعر بالخجل وكأن الخالة أجابت عنه لتزامن الجملة السابقة من حكايتها مع سؤال الأم.

تطلب الملكة في الحكاية ان يأسر الامير "سبعاً ثم يقوم بإحضاره الى قصرها"^(١٥) وهو قد جلب الجرو واخفاه في السرداب، ربما بطلب من البنت البلهاء، التي تبدو في حالة من النشاط، يدفعها احياناً الى تقليد صوت الجرو، فضلاً عن عملها في نفش القطن، وجلب كميات منه كلما اكملوا ما في ايديهم.

أهم ما في القصة؛ خيال الطفل الذي يتدخل ويروي ما ينطبع في ذهنه ويلامس إحساسه. والتداخل الحكائي بين مستويين زمنيين في السرد القالب من جهة، وبين السرد القالب، والسرد المتضمن من جهة اخرى.

أهم الوظائف التي يؤديها السرد المتضمن:

- أ- التشتييت: السارد لا يقول كل ما يريد مباشرة، انه يقول حكايته من غير ان يشعر به احد.
- ب- التكامل الحدتي: في الوقت الذي تؤدي فيه الحكاية الشعبية - المتضمنة - وظيفة التشتييت، فانها تفسر سلوك السارد وتفضح ما يخفي.
- ج- الإعاقة: السرد المتضمن يعيق مجرى السرد القالب، ويعلقه على نحو متقطع، مما يؤدي الى انتهاك البنية الخطية للقصة، ويفتت الشكل التقليدي المألوف لها.

وثمة ملحوظة أخرى يمكن ان تضاف الى ما تقدم، ان السرد المتضمن يبدو في هذه القصة وكأنه معادل للسرد القالب، فالخالة تروي حكاية مشابهة للقصة التي هي شخصية فيها. فضلا عما يؤديه السرد من تكامل وتشثيت، و تداخل كبير، فهو لم يشغل حيزا محددا داخل السرد القالب، وانما جاء متناثرا في طياته، ممتزجا معه.

٢- الرتيمة قصة: حسن كريم عاتي

يحكي السارد في القصة محاولة مجموعة من الشباب، ينتمون الى جيل متعلم من ابناء احدى القرى، يعودون الى قريتهم ويحاولون القيام بتوثيق تاريخها، من خلال الحكايات التي يجمعونها من كبار السن، والسارد واحد من الشباب، يتحدث بصوتهم، ويفصح عن اهدافهم "تعلمنا - نحن الابناء - اشياء كثيرة تجعل منا، كما نظن، ابناء بررة في تفحص تاريخها وتراثها الذي عاش فيه اباؤنا واجدادنا، الذين شيعوا سنين القحط مع اسنانهم التي لفظتها افواههم قسرا، وشابت ضفائر النسوة فيها" (١٦) فالمجموعة يمثلون الجيل الجديد من ابناء القرية، والهدف مراجعة تاريخها وتراثها، وتظهر هنا نبرة التعاطف مع الجيل الذي سبقهم وما عاناه في الحياة الصعبة. وفي تلك المحاولات يتمثل المستوى السردى الاول -السرد القالب- . اما المستوى الثاني -المتضمن- فانه يتمثل في حكاية (سنة الردم) تلك الحكاية المأساوية الغريبة، التي اثارت اهتمام الشباب، وقابلوها بالشك في بداية الامر، لانهم متشككون اصلا، ولان الحكاية اغرب من ان تصدق، لكنهم يغيرون انطباعهم عن هذه الحكاية، ويصدقونها اكثر من غيرها بسبب تلك الأيمان الغليظة التي اقسم بها اهلهم الكبار وهم يحكونها.

"قال الجد: لم يكن الامر قد حدث بوضوح او سرعة، كان وقوعه غامضا بطيئا. اخذت عوائل من ابناء عمومنا تختفي لم نعرف ما حصل لها. حدث ذلك في سنة القحط او المحل او الجفاف او الجوع. سموها كيفما شئتم... تغلق البيوت ابوابها ونوافذها بالطين ويغادر اهلها القرية... فنرى منزلا منغلقا هجره اهله ولم يبق بيننا من ساكنيه احد" (١٧)

يقوم هنا أحد الأجداد بدور الراوي الثانوي، لينقل الحكاية الى السارد وجماعته، ويستمر ليصف ما حصل في تلك السنة من قحط وجوع وموت، وتلك البيوت التي تصبح مغلقة الابواب والنوافذ بالطين من غير أن يعرف أحد عن أهلها شيئا. والأطفال الذين كانوا يسقطون في الطرق جوعا، ويكمل حكايته عن الذين ردموا بيوتهم وانقطعت اخبارهم فلم يسمع بخبر عن احدهم في قرية او مدينة.

يستمر الجد من غير ان يقاطعه احد، ليصل الى اللحظة التي يكشف فيها عن سر تلك الحكاية، فبعد ان ردم احد ابناء القرية بيته واختفى، جزع ابن اخيه الذي كان مولعا بابنته، وبقي يحوم حول الدار و"عند الظهر صرخ صرخة افزعتنا، اذهلنا صراخه وهو ينقض على البيت يحاول تحطيم الباب" (١٨) فيندفع أهل القرية ليمسكوا به، لكنه يتمكن من فتح الباب ليكشف لاهل القرية عن مفاجأة أذهلتهم، فالعوائل التي ردمت بيوتها لم تغادرها.

جاء السرد المتضمن بصوت الجماعة، يروي حكايات ثانوية من زمن الأجداد، أما الحكاية الرئيسة في السرد المتضمن - حكاية الردم - فقد رواها أحد الأجداد بصوته، وهو أحد الشخصيات الرئيسة فيها عندما كان شاباً.

اهم الوظائف التي يؤديها السرد المتضمن:

أ- العرض: تحمل القصة مضامين انسانية عميقة، اكبر مما بدت في ظاهر مقاصد السارد في بدايتها. وقد اشتملت القصة على عدد من الحكايات المتداخلة التي تعمق مصاعب الحياة في ظروف الحصار والقحط والقسوة.

ب- القياس التمثيلي: ان الذين عانوا من المصاعب وكابدوا مرارتها وقسوتها، هم الاكثر قدرة على تحديد اهميتها. ولذلك تبدو الحكاية في النهاية اعماق مما يلوح في بدايتها، انها اكتشاف الحقيقة واكتشاف الصدق الذي يعبر عنه من عاش المأساة على نحو يختلف كثيراً عن الذي يسمع بها سماعاً.

٣- ملائكة الخطيئة قصة: علي عبدالامير صالح

يتألف المستوى الاول - السرد القالب - من كلام السارد على المتغيرات التي طرأت على البلد، وحياته الشخصية، وعلاقته مع صديقه الصحفي، التي تمثل الخط الرئيس في سرده، فقد وجد السارد - بعد عودته من اليمن - وطنه في وضع يبعث على الحزن والاسى، ووجد صديقه الصحفي يبحث عن عمل، وبعد ان تراجع عن رغبته في العمل مترجماً لدى قوات التحالف، بسبب حوادث اغتيال المترجمين، يؤثر العمل مراسلاً صحفياً ويجد ضالته في (الانديبندنت) التي وافقت ادارتها على منحه راتباً مجزياً بعد قراءة سيرته الذاتية.

أما المستوى الثاني - السرد المتضمن - فانه يتألف من حكايتين متداخلتين، يؤطرهما السرد القالب ويتضمنهما.

الحكاية الثانية تتمثل في التقرير الذي أعده الصحفي لصحيفته البريطانية، التي طلبته لكي تختبر شجاعته وقدراته الكتابية "ان جريدتكم الموقرة وضعتني امام الواقع بإخفاقاته، والحاضر بفوضاه، والمستقبل بغموضه" (١٩)

يبذل الصحفي جهداً كبيراً في إعداد تقريره، ويضمنه عدداً غير قليل من الحكايات الموجزة، ويواجه المخاطر وهو يقتحم ذلك العالم المجهول، عالم فراشات الليل، أو ملائكة الخطيئة، ويتعاطف معهن بعد ان يلتقي نحو ستين امرأة منهن "كانت السوداوية تفتنهن على الرغم من الابتسامات الأسرة التي يرسمها على وجوههن، وبغض النظر عن الضحكات المدوية التي يطلقنها" (٢٠)

وقد كتبه بأسلوب ادبي يزخر بتأملاته وآرائه في الكتابة والحياة، وأحلامه وآماله وذكرياته، وكأنه يشعر أنه يكتب موضوعه الأخير فقد اختفى، ووصلت مسودات تقريره الى صديقه - السارد - بعد ثلاثة اشهر، فقام بترجمتها بعد إجراء بعض التعديلات عليها .

أما الحكاية الثالثة فهي حكاية سماهر أجملهن وأشهرهن جميعاً وهي الوحيدة التي سجل حكايتها منذ طفولتها البائسة في دار الأيتام، وشبابها الضائع، وزواجها، ثم لجوئها الى هذا العمل المُحرّم الذي بدأت تكرهه، تحكي عن رجال (القاعدة) الذين يبتزونها ويأخذون نصف ما تكسب، فضلاً عن استغلالها جسدياً، ثم تخدم حياتها بموقف شجاع؛ فقد قتلت رجل القاعدة ووقفت تنظر الى جثته بغضب عبّر عن مشاعر جميع الأبرياء الذين خطفوا وقتلوا، ولكنها في النهاية تنتحر.

لقد قدم الصحفي حكاية سماهر في بدايتها ونهايتها فقط، وهذا خيار مناسب لتسجيل حادث الانتحار، وتركها تحكي الجزء الأكبر منها بصوتها.

أهم الوظائف التي يؤديها السرد المتضمن:

أ- العرض: لقد ضم التقرير، وحكاية سماهر، معلومات كثيرة عن المجتمع، والظروف التي أعقبت الإحتلال. وأعطى معلومات عن شخصيات أخرى خارج الخط الرئيس للسرد القالب.

ب- القياس التمثيلي: ويمكن ان يلمح في حكايتي السرد المتضمن نوع من القياس، في حالات اضطراب عدد من الشخصيات لممارسة أعمال مرفوضة مُدَلَّة، تحت ضغط الفقر.

٤- حكايتي الى الجميلة شهرزاد قصة: عبدعلي اليوسفي

في القصة ثلاث حكايات، وردت في مستويين سرديين.

المستوى الأول (السرد القالب): وفيه الحكاية الاولى التي يرويها السارد، وتتضمن حكايتين وتؤطرهما، وهي حكاية السارد مع قراءة القصص، التي اصبحت تتداخل مع حياته، فهو مثل شهرزاد لا يجد الحياة الا في الحكايات المتعددة المتسلسلة، التي تتكاثر حتى تصبح سلالة كبيرة. ومثلما تربعت شهرزاد على عرش سلالة حكاياتها، يشعر السارد بذلك ويقول "في سهادي مع الليل تربعتُ انا الآخر على عرش السلالات جلست الف ليلة وليلة اكرر الدور" ^(٢١) يشعر بحالته ابوه وامه وزوجته التي ترى في القراءة ضرة لها. يوغل في الخيال، فيرى في بعض الليالي شهرزاد، ووجوها احبها، واماكن كان يألفها.

المستوى الثاني: السرد المتضمن؛ وفيه حكايتان متوازيتان، يتضمنهما السرد القالب معا.

الحكاية الثانية؛ حكاية حسن الصائغ، الذي ما انفك يبحث عن (منار السنا) وفي كل مرة "يعود بها لكنها تطير مثل الحلم، يجيء بها تمكث مدة تعاف نفسها المدينة فتطير" ^(٢٢) وفي احدى المرات عاد الى مدينته فوجد كل شيء يطير حتى النساء، ارتعب الرجال وقل نومهم، واخذوا يشربون ليل نهار، ونصبوا الافخاخ والشباك في كل مكان، وقعت في الشباك النساء والطيور والمخلوقات الاخرى. والرجال يمارسون سطوتهم. وقدمت هذه الحكاية بصوت السارد وهو يروي اسفار حسن الصائغ. وتقيد عبارة للسارد يقدم بها للحكاية الثالثة، ان حسن الصائغ كان قد روى له حكايته بصوته. "في حانة المدينة الكبيرة التقيت احدهم: روى لي بما يشبه رواية حسن" ^(٢٣) ولكن السارد لخصها واعاد صياغتها بصوته موظفا ضمير الغائب.

اما الحكاية الثالثة؛ فهي حكاية رجل من المدينة يرتاد الحانة، يروي بصوته حكاية مدينة "سماؤها برق ورعد. تغطي صفحتها غيوم رمادية داكنة... تمتلئ شوارعها وازقتها بالمصدات والكتل الجملودية ناسها بهيئات شبحية عملاقة، مسحت ملامحهم العتمة." ^(٢٤) يلتقي فيها امرأة، تحدثه عن اقنعتهم ووجوههم المتعددة، وجوه عديدة ولشتى الاغراض، فمنها وجوه للصدق، للحب، للربا، للشعوذة، للسهرة، منها الابيض او الاسود او الساخر...

تلفت النظر طريقة التضمين، فالسارد يدخل الحكاية الثانية، في سرده مباشرة، ولا ينقلها بصوت صاحبها الراوي الثانوي. ولكنه يشير الى ذلك عندما يقدم الحكاية الثالثة بصوت صاحبها. والامر الآخر، يكمن في تضمين الحكاية الثالثة، فهي متضمنة في السرد القالب مباشرة، بجانب الحكاية الثانية، وليس في داخلها.

أهم الوظائف التي يؤديها السرد المتضمن:

أ- التشتيث: في الحكايات رموز ودلالات مشتركة، وبينها روابط لاتخفى؛ حسن الصائغ، ورجل الحانة، كل منهما يبحث عن امرأة لا تمسكها يد، في ظروف غير مألوفة، وهذا يحيل الى الخط المهم في حكاية السارد الاولى، ولكنه كان يحرف الخطاب عن هذا الموضوع، موهما المتلقي بتركيزه على الموضوع الاخر المتمثل في حبه للقراءة والقصص والتأمل، وقضاء الليالي مع خياله واحلامه. وقد عبر عن اعماقه على نحو غير مباشر، عندما اعاد صياغة الحكايتين، وبث فيهما ما يتناغم ومشاعره. وفضلا عن ذلك فقد كانت المرأة حاضرة في تأملاته وخیاله واحلام يقظته، مثلما كانت حاضرة في عنوان قصته وبدايتها، متخفية خلف وجه شهرزاد.

ب- العرض: في الحكاية الثالثة اشارات وايحاءات تتجه صوب الهم العام، خارج خط الحكاية الرئيس، المنصب على الهم الخاص الذاتي.

خامسا: حالات خاصة من السرد المتضمن:

١- رماد الأقاويل قصة: فرج ياسين

تبدو الحكاية في الظاهر متمثلة في رغبة السارد ومعة مجموعة من اصدقاء الطفولة، في العودة الى الماضي والبحث عن رجل غريب، كان يتراءى لبعضهم في صباحات طفولتهم البعيدة. فيقررون التحقق، ويبذلون جهودا مضنية، متخذين وسائل مختلفة. فكانوا يسألون القلة الباقية من كبار السن، ويرسمون خرائط للمدينة القديمة كما تختزنها ذاكرة كل منهم. لكن الزمن يمضي، وهم يتناقصون، ولم يصلوا الى نتيجة. وهذا يمثل السرد القالب، الذي يقدمه احد افراد المجموعة، موظفا ضمير الجماعة، اكثر من ضمير المفرد المتكلم، ومتحدثا باسمهم.

يقدمه السارد في بداية القصة شبحاً غامضاً لا يستقر على ارض صلبة "قبل ان يظهر لنا في كؤوس الماء والمرابيا، وزجاجات الخل الفارغة، كان قد ظهر لنا في شطحات التأمل، وظعنات اليأس." (٢٥) ويمكن ان تلحظ الصورة الشبحية الغامضة، فلا ملامح، ولا ابعاد محددة، ولا اماكن واضحة.

ويعيد السارد الكرة ليكون اكثر وضوحاً واقرب الى الاعتراف متحدثاً بصوت الجماعة ايضاً "قبل ان يظهر لنا هذه المرة، في الحوار، كنا قد استدعينا من حرائق طفولتنا" (٢٦) ويقترب اكثر من الاعتراف "ربما ظهر هنا او هناك، لكن الامر بعد ثلاثين عاماً، لم يعد بهذه البساطة ابداً" (٢٧)

ان قوله في العبارة الثانية من القصة (كنا قد استدعينا من حرائق طفولتنا) يشير بوضوح الى ان الفاعل المؤثر ليس تلك الشخصية وانما جماعة المتكلمين انفسهم، ويبدو ذلك اكثر وضوحاً عندما يقول احدهم - السارد - عن الحكاية بصراحة انها "ليس بالضرورة ان تكون حكايته بل حكايتنا" (٢٨) ان الحكاية لم تكن حكاية شخص غريب، ربما تراءى لطفل في لحظة ما، على نحو اختلط في ذاكرته، بفعل خيال الطفولة. وربما انتقلت تلك الصورة الى مخيلة اطفال آخرين من اصحابهم، لكنهم الآن بعد هذا الزمن الطويل، لا يمكن لأي منهم ان يجزم، ان كان ذلك حقيقة ام وهماً.

الحكاية كما وصفها، مثل "قشة تتوقف في مجرى نهر فيعلق فيها ما يغدو بعد ذلك كثيباً من الخرق والعيان والقواقع والطمى وعظام الاسماك النافقة" (٢٩)

انها حكايتهم هم، هم الذين دخلوا زمن الشيخوخة وفقدوا الكثير من اصحابهم وعمرهم. لقد تغير كل شيء من حولهم، البلدة والازقة والاماكن التي عاشوا فيها طفولتهم، انهم يبحثون الآن عن شيء مشترك يبعث الحياة في نفوسهم فلا يجدون ذلك الا بالحوار، والخيال والعودة الى الطفولة، والى تلك المدينة التي عاشوا فيها، وتعيش هي الآن في مخيلتهم وخرائطهم انهم يحاولون العودة الى ماضٍ اثر في نفوسهم بهدف احيائه من جديد. وهذه المضامين تمثل السرد المتضمن، الذي لا يبدو واضحاً ومحدداً، وانما يأتي متداخلاً مع السرد القالب الى الحد الذي لا يمكن معه التفريق بينهما.

يهيمن التداخل على القصة ويشمل جميع مكوناتها، تداخل في الضمائر، والمستويات السردية، ومستويات الزمن، وفي الشخصيات والرواة الثانويين ونقله الاخبار والاقاويل. ولهذه الاسباب وغيرها تحتل القصة عدة قراءات.

أهم وظيفة يؤديها السرد المتضمن تكمن في:

أ- التثيت: انه يسرب حكايته من غير ان يشعر به احد، لانه يمويه ويلفت الانظار نحو البحث عن حقيقة ذلك الرجل الخرافة، وفي الوقت نفسه يحكي قصة جيل اضاع الجزء الاكبر من حياته، ويبحث عن ماضٍ جميل وصحبة اجمل.

ب- العرض: اعطى معلومات كثيرة عن ماضي المدينة، وجماعة السارد.

اما اهم مايتصف به السرد المتضمن في هذه القصة، فهو عدم وضوح الحدود بينه وبين السرد القالب، وانه لم يقدمه راوٍ محدد، وانما تجمع من اخبار واقاويل تناقلتها الالسن، فامتزج بالسرد القالب.

٢- بكتريا المتاحف قصة: حسن كريم عاتي

يحكي السارد قصة "مدينتين ركبتا الواحدة فوق الاخرى"^(٦٨) وهو فرد من مجموعة موظفي مصلحة الآثار، ويظهر الصوت الممثل للجماعة صريحا منذ الكلمات الاولى للقصة، مصحوبا باشارات الى المهمة التي يؤدونها في تلك الظروف الاستثنائية الصعبة "ادركنا الليل.. ونحن نصنف مخطوطات دار العسس، التي نقلت من تحت انقاض الدور المنهارة بفعل تقادم الزمن وفيضان السنة التي صاحبه فيها الطاعون"^(٦٩)

تتحصر مهمة المجموعة التي ينتمي اليها السارد ويتحدث باسمها، في جمع المخطوطات والوثائق واللقى والآثار وكل ما يعود الى المدينة القديمة، بهدف تصنيفها ودراستها لمعرفة تاريخ المدينة وجغرافيتها.

تتمثل هذه المهمة في المستوى الاول من السرد، كما يبدو الامر في ظاهره. اما المستوى الثاني، فهو تلك المدينة التي تموت من غير ان يهتم بها احد، والتي يشير اليها السارد باشارات عابرة، وتلوح مشاهد مآسيها في الخلفية. يقول في احدى الاشارات الواضحة الى مأساة هذه المدينة القائمة التي بدأت تنهار، ومعاناة اهلها الاحياء المهددون بالموت "اصاب اهلنا الاعياء من اجتماع اكثر من مصيبة، وفقدوا الرغبة في التصدي لمياه النهر الذي لم يترك لهم الكثير، فتراكم اليأس مع ازدياد حالات الاحباط التي عاشوها، وترك اثاره غصونا داكنة فوق جباههم."^(٧٠) ان نبرة التعاطف مع الامل والاحساس بمحنهم واضح في عبارته هذه،

وهذا امر لا يمكن تحقيقه لكثرة اعداد الموتى وقلة الموظفين الذين يحاولون تهدئة ذوي الموتى الذين يبحثون عن "جثث موتاهم التي اختلطت مع المواد الاثرية... غير ان عملنا لم يكن بالدقة الكافية فقد رفعت من المخازن بعض الصناديق الخاصة بالمواد الاثرية ودفنت فعلا في مقابر المدينة وسط عويل النسوة"^(٧٤) لتشابه تلك الصناديق والتوابيت، وعند فتح صناديق اخرى تعفنت في المخازن الرؤوس المقطوعة، والعيون الجاحظة التي تطالبهم باحترام ميتتهم.

على الرغم من انزياح السارد عن مقصده ظاهريا- لكنه وضع إشارات وعلامات تأخذ بيد المتلقي نحو القصة الحقيقية، التي يجد بعضها في تلك الإشارات العابرة الى المدينة التي تموت والبيوت التي تسقط فوق ساكنيها والرؤوس المقطوعة والجثث المتعفنة. ويجد بعضها الآخر في رد فعل السارد الإنساني تجاه الإهتمام بالآثار والمخطوطات أكثر من البشر الذين يتعرضون لكارثة إنسانية.

إن إهتمام السارد بالمدينة القديمة المطمورة تحت المدينة الحديثة، والتي يحكي قصتها في المستوى الاول من القصة، سيحيل المتلقي الى الاهتمام بالمستوى الثاني المطمور (المتضمن) خلف المستوى الاول في القصة، والذي يحكي قصة المدينة الحالية التي تتعرض لكارثة انسانية.

ان السرد المتضمن لا يأخذه السارد من رواة ثانويين، وانما يأتي متداخلا مع السرد القالب. يقدم السارد قصته في مستويين مداخلين، لكنه ينزاح عن مقصده، ويجعل الحكاية الرئيسة المهمة في المستوى الثاني -المتضمن- بينما يجعل الحكاية الثانوية في الواجهة، في المستوى الاول -القالب- .

أما أهم الوظائف، فهي:

أ- التشييت: السارد موظف حكومي، يتحدث باسم مجموعة مكلفة بحفظ آثار المدينة القديمة، موظفا ضمير الجماعة. وهو في الوقت الذي يحكي وقائع عملهم، فانه يسرد القصة المؤثرة في أعماقه وضميره، قصة الإنسان الذي يموت ولا يجد من يهتم لمصيره.

ب- القياس التمثيلي: لستم أيها الأحياء وحدكم المبتلون، فالأموات أيضا لم يسلموا من الأذى.

-
- ١- ينظر الاعتراف بالقصة القصيرة، ٨٦-٨٢ .
 - ٢- ينظر علم السرد، ٨٠ .
 - ٣- ينظر م. ن ٨٤ .
 - ٤- ينظر خطاب الحكاية ٢٣٩-٢٤٥ . وعلم السرد ٨٥-٨٦. للاطلاع على الوظائف.
 - ٥- ينظر مجلة الثقافة الاجنبية، العدد ٢ ، لسنة ١٩٨٤ ، ص ٩٦ - ٩٨،
 - ٦- م. ن ٩٨،
 - ٧- ينظر مجلة الثقافة الاجنبية، العدد ٥-٦ لسنة ١٩٨٤ ، ص ١١٩ - ١٢٥،
 - ٨- م. ن ١١٩،
 - ٩- م. ن ١٢٤،
 - ١٠- رماد الاقاويل، ٤٠ .
 - ١١- م. ن .
 - ١٢- م. ن .
 - ١٣- م. ن .
 - ١٤- م. ن ٤١ .
 - ١٥- م. ن ٤٠ .
 - ١٦- عزف منفرد، ١٥ .
 - ١٧- م. ن ١٨ .
 - ١٨- م. ن ٢٥ .
 - ١٩- يمامة الرسام، ١٥٣ .



- ٢٠- م.ن ١٧٩ .
- ٢١- مدينة الأتزل، ٤٧،
- ٢٢- م.ن ٤٩،
- ٢٣- م.ن ٥١،
- ٢٤- م.ن .
- ٢٥- رماد الاقاويل، ١٣ .
- ٢٦- م.ن .
- ٢٧- م.ن ١٤ .
- ٢٨- م.ن ١٧ .
- ٢٩- م.ن ٢١ .
- ٣٠- عزف منفرد، ٧٤،
- ٣١- م.ن ٧١،
- ٣٢- م.ن .
- ٣٣- م.ن ٧٦.

المصادر والمراجع:

- ١- الاعتراف بالقصة القصيرة، سوزان لوهافر، ترجمة محمد نجيب لفتة، بغداد، ١٩٩٠
- ٢- خطاب الحكاية، جبرار جينيت، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الازري وعمر حلي، نشر المجلس الاعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة.
- ٣- رماد الاقاويل، فرج يلسين، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١ بغداد ٢٠٠٦.
- ٤- عزف منفرد، حسن كريم عاتي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١ بغداد ٢٠٠٧.
- ٥- علم السرد(مدخل الى نظرية السرد)، يان مانفريد، ترجمة امانى ابي رحمة، ط١ الموصل، ٢٠٠٩
- ٦- مجلة الثقافة الاجنبية، العدد ٢ ، لسنة ١٩٨٤،
- ٧- مجلة الثقافة الاجنبية، العدد ٥-٦ ، لسنة ١٩٨٤،
- ٨- مدينة الاثل، عبدعلي اليوسفي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١ بغداد ٢٠٠٩ .
- ٩- يمامة الرسام، علي عبدالأمير صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١ بيروت ٢٠١٠.